# عمر بن عبد العزيز

اجتمع فى تكوين شخصية « عمر بن عبد العزيز » عوامل كثيرة ، تضام بعضها إلى بعض ، فأخرجت للناس لوناً جديداً من ألوان الرجال الذين تجتمع فيهم نباهة الملك فى سياستهم وحكمهم ، ونباهة الزهد فى ورعهم وتصوفهم ؛ ولقد ود الحكماء قديماً لو أن ملوك الأرض كانوا فلاسفة ، أو لو أن الفلاسفة كانوا ملوكا ، حتى تقترن السياسة بالأخلاق على أساس ثابت مطرد ، وينهض المجتمع الإنسانى فيستحيل العالم الدنيوى فيه جنة مرضية ، ونعيما مقيما .

ولقد تحقق هذا الحلم الجميل على عهد الخليفة العربى المسلم « عمر ابن عبد العزيز » ، فهو رجل أوتى المال والمعرفة ، وألقت إليه المقادير بزمام أعظم دولة فى الأرض على عهده ، واستطاع فى خضم كل التيارات المحيطة به أن يكسر شهوته ، ويميتها ، وأن يروض نفسه حتى يردها إلى الرضا بالقليل ، ثم تجرد ونهض لإصلاح رعيته عن طريق العدل والرفق والرحمة ، فأذاق الناس فى مدة حكمه لذة الأمن واليسر والرضا . وإلى هذا وفوق ذلك ، فقد ترامت همته الكبيرة إلى ما وراء قومه وبلاده ، فطمع فى أن يجمع شعوب الأرض فى نظام واحد ، يقوم على أساس من مبادىء الأخوة والعدل والمساواة ؛ ووفق عمر بن عبد العزيز فى هذا

المطمع البعيد توفيقاً كبيرا ، لم يحد من مقداره إلا أن عجلت إليه المنية ، وهو لا يزال فى ميعة العمر وعنفوان الحياة .

* * *

اجتمع فى تكوين شخصية « عمر بن عبد العزيز » عاملان : عامل الوراثة . وعامل البيئة . فأبوه عبد العزيز ولى إمارة مصر من قبل أبيه مروان بن الحكم عشرين سنة ، كان فيها الحاكم الصالح والأمير العادل ؛ وقد اضطلع بأعباء الحكم ، فبان فيه بصره بتأليف القلوب ، ومقدرته على سياسة الأمور ، فضلا عن ثقافة عالية حببت إليه العلماء ، وقربته من مجالسهم . أما جده لأبيه « مروان بن الحكم » فهو ذلك السياسى الجرىء ، العارف بنفسية الأفراد والجماعات ، والقادر على أن يسير دفة الأمور فى كل الظروف وبين كل الأجواء .

وأما نسبه من جهة أمه ، « فأمه « ليلى أم عاصم » بنت عاصم ابن أمير المؤمنين العادل « عمر بن الخطاب » . وجدته لأمه ، تلك الفتاة الشريفة الصالحة التى لم تطع أمها فى معصية خالقها ، وامتنعت أن تشوب اللبن بالماء ؛ كان عمر بن الخطاب ، قد أمر مناديه ، فنادى فى الناس : « ألا يشاب اللبن بالماء » ، فقالت أم لابنتها « يا بنتاه ، قومى إلى اللبن ، فامذقيه بالماء ، فإنك

بموضع لا يراك فيه عمر ، ولا منادى عمر » فأجابت الصبية أمها :
« يا أمتاه ، والله ما كنت لأطيعه فى الملا ، وأعصيه فى الخلا » .

وكان عمر بن الخطاب يسمع هذا القول ، وهو متكئ على جدار فى جوف الليل ، وقد أعياه تعب العسس بالمدينة ، فقال عمر لصاحبه : « يا أسلم ، علم الباب ، وأعرف الموضع » ومضى عمر فى عسسه ، ولما أصبح ، قال « يا أسلم ، امض إلى ذلك الموضع ، فانظر من القائلة ، ومن المقول لها ، وهل لهم من بعل ؟ » فأتى « أسلم » الموضع ، ونظر ، فإذا الجارية أيم ، لا بعل لها ، وإذا تيك المرأة أمها ، وليس لها من رجل » فأتى « أسلم » عمر بن الخطاب ، وأخبره الأمر ، فدعا عمر ولده ، وجمعهم إليه ، وقال : هل فيكم من يحتاج إلى امرأة فأزوجه ، ولو كان بأبيكم حركة إلى النساء ما سبقه أحد منكم إلى هذه الجارية » . فقال عبد الله ابنه « لى زوجة » وقال عبد الرحمن « لى زوجة . . وقال عاصم « يا أبتاه ، لا زوجة لى ، فزوجنى » . فبعث عمر إلى الجارية ، وزوجها من ابنه عاصم ، فولدت له بنتا ، وولدت البنت « عمر بن عبد العزيز » .

ولما أراد عبد العزيز بن مروان أن يتزوج ، قال لقبيصة : « اجمع لى أربع مائة دينار من أطيب مالى ، فإنى أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح » وتزوج أم عمر .

وكان عمر بن الخطاب يردد كثيراً قوله « ليت شعرى ، من ذو الشين من ولدى الذى يملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جوراً » .

واستيقظ ابن الخطاب مرة من نومه ، فمسح النوم عن وجهه ، وحرك عينيه ، وهو يقول : « من هذا الذى من ولد عمر ، يسمى عمر ، ويسير بسيرة عمر » يرددها مرات ؛ وكان عبد الله بن عمر يقول : « ليت شعرى ، من هذا الذى من ولد عمر ، فى وجهه علامة ، يملأ الأرض عدلا » .

* * *

هذا هو عمر بن العزيز فى نسبه ونبيل وراثته ؛ وليس أثر البيئة التى نشأ فيها فيها ابن عبد العزيز بأقل من أثر الوراثة فى تكوينه ، فقد ولد عمر بالمدينة سنة اثنتين وستين من الهجرة ، ودرج بها غلاما صغيرا ، يأتى عبد الله بن عمر ، ثم يرجع إلى أمه ، فيقول لها : « يا أماه ، أحب أن أكون مثل خالى » فترفق به أمه مشفقة عليه وتقول « . . . أنت تكون مثل خالك . . ! » فيزداد الطفل بهذا القول رغبة ، ويقوى به الدفع المشفق تصميما وأملا .

ولما ولى أبوه أمر مصر ، وقد أعجله الخليفة بالسفر اليها ، كتب عبد العزيز بن مروان إلى زوجه - وكانت بالمدينة - أن تقدم عليه ،

وأن تأتى بابنها ، فأتت الزوجة عمها « عبد الله بن عمر » ، وأعلمه بكتاب زوجها إليها ، فقال لها « يا ابنة أخى : هو زوجك ، فالحقى به » . ولما أرادت الخروج ، قال لها عمها « . . خلفى عندنا هذا الغلام - يعنى عمر - فإنه أشبهكم بنا » . فخلفت الأم ابنها عند خاله ، ولم تخالفه .

وعندما قدمت مصر على زوجها عبد العزيز ، أبصر الأب ولده ، فإذا هو لا يرى عمر ، فقال لها « وأين عمر » ؟ « فأخبرته خبر عبد الله ، فكتب إلى أخيه عبد الملك بن مروان ، يخبره بذلك ، فكتب عبد الملك أن يجرى على عمر بن عبد العزيز ألف دينار فى كل شهر .

ثم إن عمر قدم على مصر ، ولبث بها زمنا ، ينعم فيها بصحبة أبيه ، ومشاهدة آثار الحضارة المصرية ، حتى وقع بها الطاعون سنة سبعين من الهجرة ، فخرج منها أبوه ونزل بحلوان ، وقد كان أعجبه موقعها وهواؤها . فاشتراها من القبط بعشرة آلاف دينار . واتخذها سكنا له ، وبنى بها الدور والمساجد ، وعمرها أحسن عمارة ، وغرس نخلها وكرمها وشجرها .

وفى ذات يوم ركب عمر بن عبد العزيز حماراً ، فسقط عنه ، وشج وجهه ، وبلغ هذا أخاه « الأصبغ » وكان غلاما ، فضحك لسقوط أخيه ، وبلغ سقوط عمر وضحك أخيه منه أباه

عبد العزيز ، فاغتاظ على الإصبغ ، وقال له « يسقط أخوك ، فيشج فتضحك سرورا بما أصابه ؟ ! » فقال الإصبغ « ليس ذلك كذلك أيها الأمير ، لم يضحكني شماتة ولا سرور بسقوطه ، ولكن كنت أرى العلامات عن أشبح بني أمية مجتمعة فيه ، إلا الشجة ، فلما سقط وشج سرني ذلك ، لتكامل العلامات فيه . فأضحكني . . ؛ وهو والله أشبح بني أمية » . فسكت عبد العزيز ، وقال : ما ينبغي لمن كان يرجى لما يرجى له أن يكون تأديبه إلا بالمدينة » .

* * *

ولما بلغ الصبي « عمر » سن التأديب ، بعث به أبوه إلى المدينة ليتأدب بها ، وينشأ فيها نشأة إسلامية مدنية . والمدينة المنورة إذ ذاك كانت مركزا مهما للثقافة الإسلامية ، فقد انفردت زمن النبي محمد ـ صلوات الله عليه ـ بأن كانت مهجر رسول الله وأصحابه ، وبها حدث الرسول أكثر حديثه ، وفيها شرع الرسول معظم شريعته ، وظلت المدينة من بعده مقر الخلافة الإسلامية أيام أبي بكر وعمر وعثمان وموطنا لكبار الصحابة والأئمة الأعلام ، واشتهر بها كثير من العلماء الأجلاء ، أمثال زيد بن ثابت الذي كان حجة في القضاء والفتوى والقراءة والمواريث ، وعبد الله ابن عمر إمام علم الحديث ، وسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير بن العوام ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود .

ولم تكن البيئة بالمدينة مماثلة فى الروح الدينى الصحيح ، فقد كان فيها أيضا الجانب الأرفه من الحياة ، ممثلا فى عبد الله بن جعفر أول نصير لصناعة الغناء العربى ، وفى طائفة من المغنين والقيان يتقدمهم معبد ، ومالك بن أبى السمح ، المغنيان المدنيان المشهوران ، وفى طائفة من الشباب يتقلبون فى أعطاف النعمة والبطالة ، فجنحوا إلى الاستمتاع بلذائذ الحياة ومتعها ، وطفقوا ينفقون الأموال فى الترف واللهو والقصف والغناء ، حيث مواد النعيم لديهم موفورة .

وكانت المدينة فى تلك الحقبة من الزمان تزخر بالحياة الأدبية ، من قرض الشعر ، ورواية أشعار العرب ، وأخبارهم ، وأيامهم ، ثم هى إلى هذا وذاك كانت من الناحية السياسية موطنا للمعارضة التى تستند إلى الكتاب والسنة فى مقاومة الحكومة الأموية .

فى هذه البيئة تخرج عمر بن عبد العزيز ، فروى الحديث عن جملته ورواته . وإذا العلماء عنده تلاميذه ، ولما صلى أنس بن مالك خادم النبى صلى الله عليه وسلم خلف عمر بن عبد العزيز ، قال : « ما صليت خلف إمام بعد رسول الله صلاة أشبه بصلاة رسول الله من إمامكم هذا » وكان عمر بن عبد العزيز يتم الركوع والسجود ويخفف العقود والقيام .

ولقف عمر بن عبد العزيز صناعة الغناء ، وأعانه على المساهمة فيها صوت ندى عذب فى بيئة غنائية ، فياضة بالألحان والإيقاع ،

منصة بحذاق المغنين والمغنيات ، شارك فيها مشاركة حسنة كبار الأئمة في المدينة ، ورجال الورع والتقوى .

وأشرب عمر بن عبد العزيز روح الحكومة الإسلامية القديمة التي كانت تختلف عن الحكومة الأموية اختلافا كبيرا ، وتاقت نفسه إلى العربية والشعر فأصاب منهما ما أراد ، وإلى هذا كله ، فقد كان ابن عبد العزيز فتى مليح الخلقة ناعما مترفا كعادة فتيان بني أمية ، ويروى أنه أبطأ يوما عن الصلاة ، فسأله مؤدبه « صالح بن كيسان » وكان يلزمه الصلاة « ما حبسك ؟ » فقال له عمر : « كانت مرجلتي تسكن شعري . . » فقال له صالح : « بلغ بك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة . . ! » وكتب إلى عبد العزيز بذلك . فبعث عبد العزيز إلى ابنه رسولا ، لم يكلمه حتى حلق شعره ، وكان عمر بن عبد العزيز من أعظم الأمويين ترفها وتملكا ، غذي بالملك ونشأ فيه ، تعصف ريحه فتوجد رائحته في المكان الذي يمر فيه ، ويمشي مشية تسمى « العمرية » كان الجواري يتعلمنها من حسنها وتبختره فيها .

* * *

وفي عام ٨٥ هـ توفي عبد العزيز بن مروان بمصر ، وكان ابنه عمر قد تم تأديبه بالمدينة ، فاجتذبه الخليفة عبد الملك بن مروان إلى الشام ، وقد سار ذكره إلى دمشق ، وبهر الناس فضله وعلمه ، وتحدث عنه

الفادى والرائح علما وفضلا ، وهيبة ووقاراً ؛ واختاره الخليفة زوجا لابنته « فاطمة » . فداخلت الغيرة والحسد نفوس بعض أولاد الأمويين ، وقال عبد الملك لعمر : « قد زوجك أمير المؤمنين فاطمة بنت عبد الملك » فأجابه عمر « وصلك الله يا أمير المؤمنين ، قد أجزلت العطية وكفيت المسألة » . فسأله الخليفة : « يا عمر ، كيف نفقتك على زوجك ؟ » فقال « الحسنة بين السيئتين يا أمير المؤمنين » قال « فما هما ؟ » قال « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » .

وجهز الخليفة ابنته على أحسن ما يجهز الملوك ابناتهم ، وولى زوج ابنته على بلد صغير يسمى « خناصرة » من أعمال « حلب » واغفله فى البادية . فلبث عمر واليا عليها سنتين كانتا من أنعم سنى حياته وحياة زوجه ، وقد أعجبته هذه الأرض حتى أنه عندما استخلف اتخذها منزلا له ، على عادة ملوك بنى أمية فى إيثارهم سكنى البادية على الحاضرة .

* * *

وفى ربيع الأول سنة ٨٧ هـ ولاه الوليد بن عبد الملك ، وهو ابن خمسة وعشرين سنة ، بدلا من هشام بن اسماعيل المخزومى الذى أساء السيرة فى أهلها ؛ فأبطأ عمر بن عبد العزيز عن الخروج إليها من دمشق أياما : ولما قال الوليد لحاجبه : ما بال

عمر لا يخرج إلى عمله . . ؟ » قال الحاجب : « زعم أن له إليك ثلاث حوائج . » فقال الوليد : « عجله عليّ » . ولما جاء إلى الوليد ، قال عمر : « إنك استعملت من كان قبلي ، وأنا أجدر ألا تأخذ في بعمل أهل العدوان والظلم والجور » . فأجابه الوليد : « قد بلغت ما ترى من السن والحال » . وسأله عمر عن العطاء أن يخرجه للناس .

قدم عمر المدينة ، ونزل في دار جده . . مروان بن الحكم . . ودخل عليه الناس فسلموا ، ولما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة : عروة بن الزبير ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبا بكر ابن عبد الرحمن ، وأبا بكر بن سليمان ، وسليمان بن يسار ، والقاسم ابن محمد ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد ، فدخلوا عليه ، وجلسوا فحمد عمر الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

« إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتكونون فيه أعوانا على الحق ، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم ، أو برأي من حضر منكم ، فإن رأيتم أحدا يتعدى ، أو بلغكم عن عامل أتى بظلامة ، فأحرج بالله على من بلغه ذلك إلا بلغني . . »

وكانت حكومة عمر بن عبد العزيز بالحجاز . . ٨٧ - ٩٣ هـ . . حكومة شورية اصطفى لها المستشارين الذين يصدر في الأمور

عن رأيهم ، ولا ينفذ حكما إلا باطلاعهم ، واختار عمر لقضاء المدينة ، أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم ، وعرف للعلماء حقهم وفضلهم ، فأولاهم ما هم أهله من الإكبار والإجلال ، وروى أنه أرسل إبان ولايته على المدينة رسولا إلى سعيد بن المسيب - وهو من أهل الفضل والورع - يسأله عن مسألة ، وكان سعيد لا يأتى أميرا أو خليفة ، فأخطأ الرسول ، وقال لسعيد : «الأمير يدعوك .. » ، فقصد إليه سعيد ، ولما رآه عمر ، قال له عزمت عليك يا أبا محمد إلا رجعت إلى مجلسك حتى يسألك رسولنا عن حاجتنا ، فإنا لم نرسله ليدعوك ، وإنما أرسلناه ليسألك ، ولكنه أخطأ . . »

ثم إنه بعد قليل ضم الخليفة إلى إمارة عمر ، مكة والطائف ، فأصبح ابن عبد العزيز بذلك أميراً على الحجاز كله ، وعكف عمر على إصلاح شئون الحجاز . . هدم المسجد النبوى وأعاد بناءه على نحو أوسع وأروع ، وقد ضم إليه حجرات أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم - واشترى ما فى مؤخره ونواحيه حتى كان مائتى ذراع فى مائتى ذراع ، وأصلح الطرق ، وسهل الثنايا ، وحفر الآبار ، فتيسر بذلك الماء فى ذلك القطر الظمىء ، وعمل بالمدينة فوارة عند دار يزيد بن عبد الملك يستقى منها الناس ، وقد أعجب الخليفة بتلك المنشآت عند ما زار المدينة

سنة ٩١ هـ وأمر للفوارة بقوامين يقومون عليها ، وأن يسقى أهل المسجد منها ، ففعل عمر ذلك .

ولما حج عمر بن عبد العزيز فى هذه السنة خرج بعدة من قريش ، أرسل لهم صلات وثياب للحمولة وأحرموا معه وساق معه بدنا ، ولما كان بالتنعيم (١) لقيهم نفر من قريش ، فأخبروه أن مكة قليلة الماء ، وأنهم يخافون على الحاج العطش ، فقال عمر : فالمطلب ها هنا بين ، تعالوا ندع الله » . فدعوا ودعا معهم فألحوا فى الدعاء ، فلا والله ما وصلوا إلى البيت الحرام ذلك اليوم إلا مع المطر حتى كان مع الليل ، وسكبت السماء ، وجاء سيل الوادى .

ومن مظاهر بساطة عمر بن عبد العزيز فى إمارته على الحجاز أنه جلس يرتل القرآن بصوته العذب فى المسجد ، فتأذى بذلك سعيد بن المسيب على غير علم منه بصاحب الصوت ، فلم ير عمر بأسا أن ينتحى ناحية أخرى من المسجد ، وقد بلغه مرة أن قاضيه على المدينة قد استخفه الطرب عند ماسمع جارية تغنى ، حتى أخرجه الطرب من وقاره ، فعزله عمر ، ولكن القاضى المعزول تحدى الأمير لسماع الجارية ، فسمعها عمر ، وكاد هو أيضا أن يستخف ، فعذر القاضى ورده إلى عمله .

وعندما قدم الفرزدق الشاعر المدينة ، وكانت السنة محلة (٢)

---

(١) مكان يحرم منه بالعمرة ، ويعرف بمسجد عائشة (٢) جدبة

وخاف أهل المدينة لسانه ، مشى أهلها إلى عمر بن عبد العزيز فقالوا له : أيها الأمير ، إن الفرزدق قدم مدينتنا فى هذه السنة الجدبة التى قد أهلكت عامة أموالنا ، وليس عند أحد منا ما يعطيه شاعرا ، فلو أن الأمير بعث إليه ، فأرضاه ، وتقدم إليه ألا يعرض لأحد بمدح أو هجاء . . فبعث إليه عمر : إنك يا فرزدق ، قدمت مدينتنا فى هذه السنة الجدبة ، وليس عند أحد ما يعطيه شاعراً ، وقد أمرت لك بأربعة آلاف درهم فخذها ولا تعرض لأحد بمدح أو هجاء ، فأخذها الفرزدق ، ومر بعبد الله بن عمرو بن عثمان ، وهو جالس فى سقيفة داره ، عليه مطرف خز أحمر ، وجبة خز أحمر ، فوقف الفرزدق عليه ومدحه بأبيات من شعره ، فخلع عليه عبد الله الجبة والعمامة والمطرف ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، فخرج رجل - كان قد حضر عبد الله والفرزدق عنده ، ورأى ما أعطاه إياه ، وسمع ما أمره عمر به من ألا يعرض لأحد - ودخل إلى عمر ابن عبد العزيز ، فأخبره ، فبعث إليه عمر : ألم أتقدم إليك يا فرزدق ألا تعرض لأحد بمدح ولا هجاء ، أخرج ، فقد أجلتك ثلاثا ، فإن وجدتك بعد ثلاث نكلت بك ، فخرج وهو يقول :

فأجلنى : وواعدنى ثلاثا  كما وعدت لمهلكها ثمود

فقال جرير فيه :

فذاك الأغر ابن عبد العزيز ومثلك ينفى من المسجد

وشبهت نفسك أشقى ثمود فقالوا : ضللت ولم تهتد

وقدم جرير المدينة ومدح عمر بن عبد العزيز بقصيدة منها قوله:

إليك رحلت يا عمر بن ليلى على ثقة أزورك واعتماد

تعود صالح الأعمال ، إنى رأيت المرء يلزم ما استعادا

إلى الفاروق ينتسب ابن ليلى ومروان الذى رفع العمادا

تزود مثل زاد أبيك فينا فنعم الزاد زاد أبيك زادا

هنيئا للمدينة إذ أهلت بأهل الملك أبداً ثم عادا

يعود الحلم منك على قريش وتفرج عنهم الكرب الشدادا

وتبنى المجد يا عمرو بن ليلى وتكفى المحل السنة الجمادا

ولما استطار شر عمر بن أبى ربيعة وتمادى فى غيه ، وشبب ببنات السادات والخلفاء ، غضب عليه عمر بن عبد العزيز ونفاه ، وغدا الحجاز بفضل ابن عبد العزيز ينعم بأمن وعافية مما ابتليت به الأمصار الأخرى ، ولا سيما العراق ، من الفتن والقلاقل زمن الحجاج بن يوسف الثقفى ، ولذلك أخذت فلول ثوار العراق والخوارج تفد على الحجاز فرارا من وجه الحجاج وسيفه المسلول ، فكان عمر يجيرهم ويحميهم .

وكان الوليد بن عبد الملك قد كتب إلى عمر بن عبد العزيز وهو وال له على المدينة ، أن يضرب خبيب بن عبدالله بن الزبير ، بعد أن حدث عن النبي ، أنه قال « إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلا اتخذوا عباد الله خولا(١) ، ومال الله دولا » . وكان خبيب من النساك المتبتلين ، وأسن ولد ابن الزبير ؛ وقد تعلم علماً كثيراً لا يعرف الناس وجهه ، ولا مذهبه فيه ، ويشبه ما يدعي الناس من علم النجوم . فأتى به عمر بن عبد العزيز ، وأمر بجلده مائة سوط ، وحبسه ، وبرد له ماء في جرة ، ثم صبها في غداة باردة ، ولما اشتد بخبيب الوجع ، أخرجه من السجن ، ونقلوه إلى دار عمر بن مصعب بن الزبير ، واجتمعوا عنده حتى مات ، وبينما هم جلوس ، إذ جاءهم رسول عمر بن عبد العزيز ، يستأذن عليهم ، وخبيب مسجى بثوبه ، فقال عبد الله بن عروة . . اكشفوا له عنه ، فكشفوا عنه ، ولما رآه الرسول ، انصرف ، وانتهى إلى دار مروان ، فقرع الباب ، ودخل ، فوجد عمر كالمرأة الماخض قائما وقاعداً ، فقال له : ما ورائك ؟ . . . فأجابه الرسول : مات الرجل . . . ! فسقط عمر إلى الأرض فزعا ، ثم رفع رأسه يسترجع ، وقد جزع عمر لذلك جزعا شديدا ، ويقال : إنه لبس المسوح سبعين

---

(١) خولا : خدما

يوما حدادا على خبيب ، ثم أقلع عن ذلك . فلما استخلف دفع دية خبيب إلى أوليائه ، ومع ذلك كان يرى أن الله لابد مؤاخذه بذلك الذنب ، وكان إذا بشره أحدهم بالجنة ، قال « . . كيف بخبيب على الطريق » .

ولا شك أن الوليد بن عبد الملك حين اختار عمر المدينة إنما اختاره لما يعلم من المشاكلة القوية بينه وبين هذه الولاية ، ولمكان أخواله بين القوم فيها ، ولكن مالبث الوليد طويلا حتى صرف عمر بن عبد العزيز عن الحجاز بأميرين : أحدهما المدينة والآخر لمكة ، وكان أول ما صنعاه أن أخرجا من الحجاز كل عراقى فى الجوامع والأغلال ، وتوعدا كل حجازى أنزل عراقيا أو أجره داره ؛ وكان عمر بن عبد العزيز يجير ثوار العراق ويندد بعسف الحجاج ، فاضطغنها الحجاج عليه ، وكتب إلى الخليفة يشكو من أن أمير المدينة يجير المارقين فى العراق ، وأن ذلك موهن له ، ومضعف لشوكته . فنظر الخليفة فى الأمر مليا ، ثم رأى أن يشد أزر الحجاج فى هذه الخصومة ، فالعراق أخطر من الحجاز ، والحجاج أولى بالمصانعة من عمر ابن عبد العزيز ، وقد كان الحال بين ابن عبد العزيز والحجاج على عداء واضح وخصومة ظاهرة ، بلغ الأمر بها أن كتب عمر بن عبد العزيز — وكان الحجاج قد ولى موسم الحج —

إلى الخليفة يستعفيه أن يمر عليه بالمدينة ، فكتب الخليفة إلى الحجاج : « إن عمر بن عبد العزيز كتب إلى يستعفيني من ممرك عليه ، فلا عليك ألا تمر بمن كرهك . . فتنحى الحجاج عن المدينة . ولما بلغ عمر موت الحجاج خر ساجداً ، ودخل الناس على الوليد يعزونه ، ولم يعزه عمر ، فوجد الوليد من ذلك ، وقال : « ما منعك ياعمر أن تعزيني بالحجاج كما عزاني الناس ، فقال عمر : « يا أمير المؤمنين ، إنما الحجاج منا أهل البيت ، فنحن نعزى به ، ولا نعزى .. قال الوليد .. صدقت . »

هذا ما كان من حكم عمر عبد العزيز فى ولايته على الحجاز ، أما من حيث حياة عمر الشخصية من تلك الفترة ، فكان مترفا مسرفا فى الترف ، يرخى شعره ، ويسبل إزاره ، ويلبس الثوب تبلغ قيمته مئات الدنانير ، ويكثر من الطيب ، ومن طيب الطعام ، إذا مشى اختال فى مشيته العمرية ، وإذا ركب زينت له الدواب ، وساق حولها الأموال والبدن ، وأهله على خير من هذه الحال ، ناعمين بما آتاهم الله من بسطة فى الرزق . يؤتيها من يشاء ، وهو ذو الفضل العظيم .

. . .

خرج ابن عبد العزيز من الحجاز إلى الشام مغاضبا للخليفة الوليد ، وقد ساءه أن عزل من إمارة المدينة ، حتى أنه قال لمولاه « مزاحم » وهو بالطريق ، وقد نظر إلى المدينة باكيا :

« يا مزاحم ، أخشى أن أكون ممن تنفيه المدينة . . »

إشارة إلى الحديث الوارد فى أن المدينة تنفى خبيثها .

ولما وصل إلى الشام شغل نفسه بالغزو ، فراراً من وجه الوليد بن عبد الملك ، والتماسا للأجر والسلوة .

# إلى الورع والزهد

ولما توفى الوليد عام ٩٦ هـ وولى سليمان بن عبد الملك ، لزمه عمر ابن عبد العزيز ، وكان أثيرا عنده ، يستشيره سليمان ، وينزل على رأيه فى كثير من الأمور ، وقد تأثر حكم سليمان بسلوك ابن عبد العزيز ومواعظه ، وما كان تصارع القيم الدينوية فى ذلك الوقت بمثن عمر عن منهجه فى التمكين للقيم الأخروية ، وقد اتخذها عمر له طريقا ، سلك سبيله وراض نفسه عليه ، وانتفع عمر بعزله عن إمارة المدينة ، فاندفع فى السنوات التى قضاها بالشام قبل أن يستخلف إلى النظر فى حال الدولة الإسلامية فى آخر القرن الأول الهجرى .

نظر عمر ، فإذا الدولة الإسلامية قد أبعدت فى التخلى عن الصفة الدينية التى كانت لها قديما ، وأسرفت فى الاصطباغ بالصبغة الزمنية المتطرفة ، فحكومة عبد الملك والوليد والحجاج ويزيد بن المهلب ، حكومة تجبر وطغيان ؛ وحكومة سليمان بن عبد الملك حكومة الشهوة المطلقة والجسد المنهوم ، وأصبح السلطان يعتمد فى شد أركانه وتقويم دعائمه على القوة الغاشمة والسيف المسلول ، أما العدل ، وأما الرفق ، وأما الرحمة ، فلم يعد لكل ذلك محل ولا حساب .

ونظر عمر — فإذا أموال الدولة قد عراها الخلل والاضطراب

من كل نواحيها ، فنحو من ثلث أموال الدولة قد استحال ملكا خاصا لبنى أمية ، وأكثر الضرائب يجبى من غير وجوهه ، ويصرف فى غير مصارفه الشرعية ، وكثير من أراضى الخراج التى لا يصلح تملكها قد استحالت أرضا يتملكها أفراد من المسلمين ، ويؤدون عنها الزكاة التى يقل مقدارها عن مقدار الخراج ، وكثير من الموالى المسلمين ، ومن مسلمى الأعاجم ، لايزالون مع إسلامهم يؤخذون بالجزية . لغير ما سبب ، سوى أن العمال لحظوا فى إسلامهم معنى الفرار من الجزية ، فأبوا أن يعفوهم منها .

ولم يكن الموالى سواء هم والعرب فى الحقوق ، فقد كانوا يعزون إلى جانب العرب دون أن يكون لهم عطاء ، ثم إن عدم إنفاق الزكاة فى مصارفها الشرعية قد أدى إلى كثرة الفقراء والمساكين والمرضى والزمنى ، ممن جعل لهم الشرع حقا فى الصدقات العامة .

ثم نظر عمر ، فرأى بأس الأمة الإسلامية بينها شديدا ، قد توزعتها الفرق المتباغضة ، والأحزاب المتنافرة المتناحرة ، فمن شيعة يطوون صدورهم على الإحن والبغضاء لما نالهم به بنو أمية من أذى ومساءة ، ومن خوارج يتحينون الفرص لهدم النظام القائم ، وإحلال نظامهم محله ، ومن موال قد ساءهم ألا يسوى

بينهم وبين العرب فى الحقوق العامة ، ومن مضرية ويمنية وربعية ، كل يحاول أن يكون له النفوذ السياسى من طريق الولاية على الأقاليم والتأثير فى السلطان نفسه .

هذا الحال فى الداخل ، أما الحال فى الخارج ، فقد رأى عمر أن الجهاد الذى شرع على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولمنع العدوان على النفس والعقيدة ، قد استحال فى زمن الأمويين أداة للتوسع فى السلطان ، وجر المغنم الوافر ، والسبى الرائع ، حتى قال الشاعر :

ألا ذهب الغزو المقرب للغنى  ومات الندى والجود بعد المهلب

نظر عمر فى كل ذلك ، فرده إلى سبب جوهرى واحد . هو انحراف الجماعة الإسلامية عن الأساس الذى قامت عليه ، أساس الدين ، والدين عند عمر بن عبد العزيز هو الدين المتصل بالحياة العامة ، يمدها ويغذيها بقوته المعنوية ، والممسك لشئون الجماعة أن تضطرب وتصبح فوضى ، وهو الدين الذى أثره فى الحاكم شعور قوى بالمسئولية ، وعمل صادق على إسعاد العباد والترفيه عنهم ، والذى أثره فى المحكومين اقتضاء للعدل إذا حرموه ، وأنفة من الضيم والذل إذا ما أريدوا عليهما ، الدين عند عمر ابن عبد العزيز هو الحق والإنسانية ، عبر عنهما بلفظ واحد ، هو الدين .

. . .

وبينا عمر يرسل الفكر فى أنحاء الحياة الإسلامية العامة متعرفا على علاتها ، إذا به فى الوقت نفسه قد أخذ يخضع لتطور نفسانى عنيف . لقد أخذ حرصه على الترف والتنعم يضعف رويدا . . رويدا ، وميله إلى الزهد والتنسك يقوى شيئا فشيئا ، وأصبحت نظرته ، إلى الحياة نظرة إلى متاع قليل زائل ، لا يعدل شيئا بجانب طمأنينة النفس وراحة الضمير ، كما أصبح دائم التفكير فى الموت وفيما بعد الموت ، فالموت آت لا ريب فيه ، والموت برزخ مؤد إما إلى الجنة وإما إلى نار ، والمنتهى على حال رهين بما يكون عليه المرء فى العدوة الدنيا من ذلك البرزخ الرهيب .

وإن سر هذا التطور العجيب الذى جعل من ابن عبد العزيز الرجل الناعم المشرف ناسكا زاهدا متصرفا يرجع إلى أمرين : نفسية عمر بن عبد العزيز من جهة ، وتأثره بالحياة الإسلامية العامة لذلك العهد من جهة أخرى ، وقد كان فى عمر بن عبد العزيز نزوع طبعى إلى الزهد ، فهو سلالة عمر بن الخطاب ، وكان فى طفولته يحاول التشبه بخاله الزاهد . . عبد الله بن عمر ، ولما تورط ابن عبد العزيز فى أمر خبيب اهتز كيانه ولبس المسوح سبعين يوما ، يأسا من غضارة العيش ولذاذة الحياة ، وكفارة من ذنب دفعه اليه ولايته على المدينة .

ثم إن الحياة الإسلامية قد آلت بها فى أواخر القرن الأول نزعة زهد جاءت مثل رد فعل للمادية التى طغت عليها إذ ذاك ، وهذه النزعة هى التى تحولت بعد إلى الحركة الصوفية فى طبقة العباد والنساك . وقد خضع عمر لتأثير هذه الطبقة وهو فى المدينة ، فكان من أشد الناس تأثيرا فيه عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة ، ولما صار بالشام خضع لتأثير رجلين من أقطاب عصرهما ، علما وزهداً وورعا ، وهذان الرجلان هما : « الحسن البصرى » و « رجاء بن حيوة الكندى » . وقد اتصل ابن عبد العزيز بالحسن البصرى عن طريق المراسلة ، وأخذ عنه كراهية القول بالقدر الذى ينسب إلى الحسن خطأ ، وأما رجاء فقد كان مستشار سليمان بن عبد الملك ، وكان لذلك أقرب إلى عمر وأقوى به اتصالا . وكما أنتج النظر فى الأحوال العامة لعمر ضرورة الرجوع إلى الدين فى إصلاح غيره . فقد أنتج له مزاجه الخاص وتأثره بالزهاد من أهل عصره ، ضرورة الزهد من أجل النفس وتهذيبها ، فكان الدين والزهد هما الخلتان اللتان كانتا تضمران فؤاد عمر وقلبه .

خرج عمر بن عبد العزيز مع سليمان بن عبد الملك إلى مخرج من مخارجه ، لم يكن عمر قدم فيه نقدا ، فبلغ المنزل ، وصار كل رجل إلى مضربه الذى قدمه ، وصار سليمان إلى حجرة ، ثم فقد عمر ، فقال سليمان « اطلبوه ، فما أراه قدم شيئا » فطلب عمر ، فوجد تحت شجرة باكيا ، فأخبر سليمان بذلك ، فدعاه ، وقال له : « ما يبكيك يا أبا حفص ؟ فقال عمر : « أبكانى يا أمير المؤمنين أنى ذكرت يوم القيامة ، من قدم شيئا وجده ، ولم أقدم شيئا ، فلم أجد شيئا . »

وخرج عمر بن عبد العزيز مع سليمان بن عبد الملك يريد الصائفة (١) ، فالتقى غلمانه مع غلمان سليمان على الماء ، فاقتتلوا ، فضرب غلمان عمر غلمان سليمان ، فشكوا ذلك إلى سليمان ، فأرسل إلى عمر ، فقال له : ضرب غلمانك غلمانى » قال : ما علمت هذا قبل مقالتك الآن » فقال له سليمان : كذبت . قال عمر « ما كذبت منذ شددت على إزارى ، وعلمت أن الكذب يضر أهله ، وإن فى الأرض عن مجلسك هذا لسعة . . . وتجهز عمر ، يريد مصر ، فبلغ ذلك سليمان ، فشق عليه . فدخلت فيما بينهما عمة لهما ، فقال لها ، سليمان : قولى له ، يدخل

---

( ١ ) غزوة الروم لأنهم كانوا يغزون صيفا .

على ، ولا يعاتبني » . فدخل عليه عمر ، واعتذر له سليمان ، وقال له : يا أبا حفص ، ما اغتممت بأمر ، ولا أكربني أمر إلا خطرت فيه على بالي » فأقام عمر .

وكان عمر بن عبد العزيز ينهى سليمان بن عبد الملك عن قتل الحرورية (١) ، ويشير عليه أن يضمهم الحبس ، حتى يحدثوا توبة ، فأتى سليمان بحروري مستقل ، فقال له سليمان « إيه .. » فقال الحروري « نزع الله لحييك يا فاسق بن الفاسق .. ! »

قال سليمان « على بعمر بن عبد العزيز » فلما أتاه عمر ، عاود سليمان الحروري ، فقال له « ماذا تقول ؟ ، قال « وماذا أقول يا فاسق بن الفاسق » فقال سليمان لعمر يا أبا حفص : « ماذا ترى فيه .. ؟ فسكت عمر ، فقال سليمان « عزمت عليك لتخبرني ماذا ترى عليه ؟ . قال عمر بن عبد العزيز : « أرى أن تشتمه كما شتمك ، وتشتم أباه كما شتم أباك » فقال سليمان : ليس إلا ؟ ، قال « ليس إلا » فلم يرجع سليمان إلى قوله ، وأمر بالحروري ، فضربت عنقه .

ودخل عمر بن عبد العزيز على سليمان بن عبد الملك ، وعنده أيوب ابنه ، وهو يومئذ ولي عهده ، وقد عقد له من بعده ،

---

( ١ ) جماعة من الخوارج .

فجاء إنسان يطلب ميراثا من بعض نساء الخلفاء ، فقال سليمان : « ما إخال النساء يرثن فى العقار شيئا » ، فقال عمر بن عبد العزيز : « سبحان الله ، وأين كتاب الله » فقال سليمان « يا غلام ، اذهب فائتنى بسجل عبد الملك بن مروان الذى كتبت فيه ذلك ، فقال عمر ، « كأنك أرسلت إلى المصحف » . فقال أيوب ولى العهد « والله ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين ، ثم لا يشعر ، حتى يفارقه رأسه » . فقال له عمر : « إذا كان هذا الأمر إليك ، وإلى ضرباتك ، كان ما يدخل على العامة من ضرر ذلك أشد مما يدخل على ذلك الرجل من ضرب وجهه » ، فقال سليمان لأيوب : « مه ، لأبى حفص تقول هذا . . » فقال عمر : « والله لئن جهل علينا يا أمير المؤمنين ما حلمنا عليه ، وإن كان عجل علينا فقد استوفينا » .

وحج سليمان ومعه عمر ، فأصابهم مطر شديد ، ورعد وبرق ، فقال سليمان : هل رأيت مثل هذا يا أبا حفص ؟ ، فقال يا أمير المؤمنين : « هذا فى حين رحمته ، فكيف به فى حين غضبه ؟ » . وبينما سليمان يسير ذات ليلة على راحلته قرب مكة ، وقد أخذه النعاس ، إذ صاح به المجذمون ، وضربوا بأجراسهم ، فاستيقظ سليمان فزعا ، وقد بشع بهم وأفزعوه ، فأمر بتحريقهم بالنار ، فرجع المأمور وما يدرى ما يصنع

بهم ، حتى لقى عمر بن عبد العزيز ، فقال : يا أبا حفص ، حدث أمر عظيم من أمير المؤمنين . وذلك أنه مر بهؤلاء الجذمى ، وهو نائم على راحلته ، فراعه من نومه صياحهم ، وضرب أجراسهم ، فغضب ، وأمر بتحريقهم ، فقال له عمر : « لا تعجل ، حتى ألحقه ، فلحقه ، وحادثه ساعة ، ثم قال : يا أمير المؤمنين هل رأيت مثل هؤلاء المبتلين ، فنسأل الله العافية ، فلو أمرت بإخراجهم ؟ . قال سليمان : « أصبت » . وأمر بإخراجهم ، فرجع عمر وراءه ، فقال للمأمور : « قد أمر « أمير المؤمنين بإخراجهم » .

ولما أشرف سليمان بن عبد الملك ، وهو فى حجه ، على عقبة عسفان(١) ، نظر إلى عسكره ، فأعجبه ما رأى من حجره وأبنيته ، فقال لعمر : « كيف ترى ما هنا يا عمر ؟ » قال عمر : أرى دنيا يأكل بعضها بعضا ، وأنت المسئول عنها ، والمأخوذ بما فيها » .

ونظر سليمان إلى الناس ، وقال لعمر : « ما أكثر الناس . . ! » فأجابه عمر « هم خصماؤك يوم القيامة يا أمير المؤمنين » . فقال له سليمان « ابتلاك الله بهم » . وأعطاه

---

(١) مكان قريب من مكة بينها وبين المدينة .

مائة ألف درهم ليتصدق بها ، فقال له عمر : « أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين . . ؟ » فقال سليمان : « وما هو ! » . فقال ابن عبد العزيز « قوم صحبوك فى مظالم لهم ، لم يصلوا إليك » . فجلس سليمان مجلس القضاء والنظر ؛ ورد المظالم .

وحدث ذات مرة أن سمع سليمان بن عبد الملك غناء فى عسكره ، فأرسل إليهم بكرة ، فجئ بهم ، وقال لهم : « إن الفرس ليصهل فتستودق (١) له البغلة ، وإن الفحل ليخطر ، فتضبع له الناقه ، وإن التيس لينب فتستجوم له العنزه ، وإن الرجل ليغنى فتشتاق إليه المرأة » ثم قال سليمان : « اخصوهم » ، فقال له عمر بن عبد العزيز وهو يومئذ فى مجلسه :

« هذه مثلة ولا تحل » فخلى الخليفة سبيلهم .

وقدم سليمان بن عبد الملك المدينة ، فأعطى بها مالا عظيما ، وقال لعمر بن عبد العزيز : « كيف رأيت ما فعلنا يا أبا حفص ؟ قال عمر : « رأيتك زدت أهل الغنى غنى ، وتركت أهل الفقر بفقرهم . . .

. . .

(١) يقصد التجاوب الجنسي بين مؤنث الحيوانات ومذكرها .

ولما عزم الوليد بن عبد الملك أن يخلع أخاه سليمان من ولاية العهد ، وأن يعهد بها إلى ابنه عبد العزيز متبعا سبيل معاوية ، مخالفا ما كان عليه سلفه من العهد بها إلى الأخوة ، امتنع عن القبول عمر بن عبد العزيز ، وقال للوليد : « إنا بايعناكم في عقدة واحدة ، فكيف نخلعه ونتركك ، إن في أعناقنا لبيعة » فطين(١) عليه الوليد ، وشفع له بعد ثلاث ليال ، فأدركوه وقد مالت عنقه .

وكتب الوليد بن عبد الملك إلى « زيد بن حسن بن أبي طالب » يسأله أن يبايع لعبد العزيز بن الوليد ، ويخلع سليمان ابن عبد الملك ، ففرق زيد من الوليد ، فأجابه . فلما استخلف سليمان ، وجد كتاب زيد إلى الوليد بذلك . فكتب إلى أبي بكر بن حزم - وهو أمير المدينة - أدع زيد بن حسن ، فأقرئه هذا الكتاب ، فإن عرفه ، فاكتب إلى بذلك ، وإن تكل . فقدمه ، فأظهره يمينه على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كتب هذا الكتاب ولا أمر ، فأرسل إليه أبو بكر ابن حزم ، فاقرأه الكتاب . فقال زيد : « انظرني ما بين وبين العشاء أستخير الله . وأرسل زيد بن حسن إلى القاسم بن محمد

---

(١) حبسه وسد عليه بالطين .

وسالم بن عبد الله يستشيرهما ، وقال : إني لم أكن آمن الوليد على دمي لولم أجبه ، وقد كتبت هذا الكتاب ، أفترون أن أحلف ، فقالوا : « لا تبارز الله عز وجل عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنا نرجو أن ينجيك الله بالصدق » . فأقر زيد بالكتاب ، ولم يحلف . فكتب أبو بكر بن حزم بذلك إلى سليمان ، فكتب سليمان إلى أبي بكر أن يضربه مائة سوط ، ويدرّعه عباءة ، ويمشيه حافيا . فتشكى سليمان . وقال عمر بن عبد العزيز للرسول : لا تخرج حتى نكلم أمير المؤمنين فيما كتب إلى زيد بن حسن ، لعلي أستطيب نفسه فيترك هذا الكتاب . وحبس الرسول والكتاب ، ومرض سليمان ، فقال عمر : « لا تخرج ، فإن أمير المؤمنين مريض ، إلى أن رمى في جنازة سليمان ، وأفضى الأمر إلى عمر بن عبد العزيز ، فدعا بالكتاب ، فخرقه .

# الخليفة عمر بن عبد العزيز

لم يكن عمر بن عبد العزيز صاحب حق فى الخلافة بمقتضى نظام الخلافة الأموية ، ولكن ذيوع فضله وسموه الروحى على سائر بنى أمية لفت إليه نظار أولى الحل والعقد من صلحاء الشام ، أمثال رجاء بن حيوة الكندى ، وابن شهاب الزهرى ، ومكحول الشامى ، فلما مرض سليمان بن عبد الملك « بدابق » مرضه الذى مات فيه ، ولم يكن له ولد بعد وفاة ابنه « أيوب » إلا أولاد صغار ، حضره عمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة الكندى ، فقال سليمان لرجاء : وقد أراد أن يستخلف — أعرض على ولدى فى القمص والأردية » . فعرضهم عليه ، فإذا هم صغار لا يحتملون ما لبسوا من القمص والأردية ، يسحبونها سحبا ، فنظر إليهم وقال : يا رجاء . .

إن بنىّ صبية صغار  أفلح من كان له كبار

فقال له عمر : يا أمير المؤمنين ، يقول الله تبارك وتعالى : « قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى » ثم قال سليمان : يا رجاء ، أعرض على بنى فى السيوف ، فقلدوهم السيوف ، ثم عرضهم عليه ؛ فإذا هم صغار لا يحملونها ، يجرونها جرا ، فنظر إليهم ، وقال :

إن بنى صبية صيفيون  أفلح من كان له ربيون

فأعاد عليه عمر ما قال له أولا ، فلما لم ير سليمان فى ولده ما يريد ، شاور « رجاء » فيمن يعقد له ، فأشار عليه رجاء بعمر ، وسدد له رأيه فيه ، فوافق ذلك سليمان وقال : « لأعقدن عقدا لا يكون للشيطان فيه نصيب ، ولما اشتد بسليمان وجعه لم يزل به رجاء بن حيوة وأصحابه حتى كتب عهده لعمر بن عبد العزيز ، ثم من بعده ليزيد بن عبد الملك ، وكتب سليمان العهد بيده ، ولم يطلع عليه أحد إلا رجاء بن حيوة وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز ، إنى قد وليته الخلافة بعدى ، ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا ولا تختلفوا ، فيطمع فيكم » .

وأمر سليمان أن تؤخذ البيعة من بنى أمية لمن سمى فى عهده دون أن يعينه لهم ، وعاد عمر سليمان مع بعض أهل بيته ، فرأوا به الموت ، ومشى عمر بن عبد العزيز وسعيد بن خالد ورجاء بن حيوة إلى خارج ، وتخلف عن السير قليلا كأنه يعالج نعليه ، حتى أدركه رجاء . فقال له عمر : يا رجاء ، إنى أرى أمير المؤمنين فى الموت ، ولا أحسبه إلا سيهد ، وأنا أناشدك الله إن ذكرنى بشىء من ذلك إلا صددته عنى ، وإن لم يذكرنى ، ألا تذكرنى له فى شىء من

ذلك » . فقال رجاء لعمر . لقد ذهب ظنك مذهبا ما كنت أحسبك تذهبه ، أتظن بنى عبد الملك يدخلونك فى أمورهم » . وقد كان سليمان فرغ من ذلك ، ولكن رجاء أراد إخفاءه عن عمر . ولما قضى الله على سليمان بالموت كتم رجاء بن حيوة خبر موته عن الناس ، ثم خرج اليهم ، وقال لهم : « إن أمير المؤمنين يأمركم بتجديد البيعة لمن كان عهد إليه . وقد أصبح بحمد الله صالحا » . . . فقالوا « أوصلنا الى أمير المؤمنين . لننظر إليه ، وننفذ أمره ، فدخل رجاء ، فأمر بسليمان . فأسند بالوسائد ، وأقام عنده خادما . وأمر الناس . فأدخلوا عليه . يقفون عند الباب فيسلمون من بعيد . وهم يرون شخصه . ثم قال رجاء : « يأمركم أمير المؤمنين . أن تبايعوا لمن عهد اليه . وتسمعوا له . وتطيعوا » .

خرج الجواد إلى المسجد . والناس مجتمعون : وجوه بنى مروان ، وبنى أمية . وأشراف الناس . فبايعوا . حتى إذا رضى رجاء من ذلك ، نظر فى القوم فإذا هو لا يرى عمر . فخرج يلتمسه . حتى رآه فى أقصى المسجد . فوقف عليه . وقال : « السلام عليك يا أمير المؤمنين . ورحمة الله وبركاته » وقرأ رجاء كتاب الخليفة الراحل على الناس . ولما انتهى إلى ذكر عمر . نادى هشام بن عبد الملك « لا نبايعه أبدا » فاشتد برجاء الغضب ، وقال لهشام « والله أضرب عنقك . . قم » فبايع »

فقام يجرر رجليه ، وأخذ رجاء بضبعى[1] عمر ، فأجلسه على المنبر ، وهو يسترجع لما وقع فيه ، وهشام يسترجع لما أخطأه . ولما انتهى هشام إلى عمر . قال : « إنا لله وإنا اليه راجعون . حين صار هذا الأمر إليك على ولد بن عبد الملك » فقال عمر : « نعم ، وإنا لله وإنا اليه راجعون ، حين صار إلى لكراهتى له » . وكان هذا فى ٢٠ صفر سنة ٩٩ هـ .

ولما جهز سليمان ، وفرغ ابن عبد العزيز من دفنه ، سمع للأرض رجة ، فإذا الغلمان قد أتوا بمراكب الخلافة : البراذين والخيل والبغال ، ولكل دابة سائس ؛ فقال عمر « ما هذه ؟ . قالوا : مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين ، قربت إليك لتركبها » . فقال : مالى ولها ، نحّوها عنى ، دابتى أوفق لى ، فقربوا إليه بغلته فركبها ، وصرفت تلك الدواب .

وجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة . فقال له عمر « تنح عنى ، مالى ولك ؟ إنما أنا رجل من المسلمين ، ثم أقبل سائرا ، فقيل له : « تنزل منزل الخلافة » فقال : « فيه عيال أبى أيوب - سليمان بن عبد الملك - وفى فسطاطى كفاية حتى يتحولوا ، وأقام فى منزله حتى فرغوه بعد .

---

(١) أى عضديه

ثم سار عمر وسار معه الناس ، حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ، واجتمع الناس فقال :

« أيها الناس ، إنى قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإنى قد خلعت مافى أعناقكم من بيعتى ، فاختاروا لأنفسكم » . فصاح الناس صيحة واحدة « قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك ، فَلِ أمرنا باليمن والبركة ، فلما رأى الأصوات قد هدأت ، ورضى به الناس جميعا . حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم . . وقال :

« أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خلف من كل شىء ، وليس من تقوى الله عز وجل خلف ، واعملوا لآخرتكم ، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه ، وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم ، وأكثروا ذكر الموت ، وأحسنوا الاستعداد له ، قبل أن ينزل بكم ، فإنه هادم اللذات ، وإن من لا يذكر من آبائه - فيما بينه وبين آدم عليه السلام - أبا حيا لمعرق فى الموت .

وإن هذه الأمة لم تختلف فى ربها عز وجل ، ولا فى نبيها صلى الله عليه وسلم ، ولا فى كتابها ، وإنما اختلفوا فى الدينار والدرهم ، وإنى والله لا أعطى أحدا باطلا ، ولا أمنع أحداً حقا ، إنى لست بخازن ، ولكنى إنما أضع حيث أمرت .

أيها الناس : إنه قد كان قبلى ولاة تجترون مودتهم ، بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم ، ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم ، أقول قولى هذا . وأستغفر الله العظيم لى ولكم » .

ثم ذهب عمر يتبوأ مقيلا ، فأتاه ابنه عبد الملك ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، ماذا تريد أن تصنع ؟ قال : أى بنى ، أقيل ، قال : تقيل ولا ترد المظالم ؟ فقال « أى بنى ، إنى قد سهرت فى أمر عمك سليمان ، فإذا صليت الظهر رددت المظالم » . فقال له ابنه « يا أمير المؤمنين ، من لك أن تعيش إلى الظهر ؟ قال « أدن منى ، أى بنى ، فدنا منه ، فالتزمه وقبل بين عينيه ، وقال : « الحمد لله الذى أخرج من صلبى من يعيننى على دينى » . وخرج عمر ولم يقل ، وأمر مناديه أن ينادى : ألا من كانت له مظلمة فليرفعها ، فجعل لا يدع شيئا مما كان فى يد سليمان وفى يد أهل بيعته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة .

وجاء « خالد بن الريان » إلى عمر بن عبد العزيز ، وقام بين يديه مقام صاحب الحرس . وكان قبل على حرس الوليد وسليمان ، فنظر إليه عمر ، وقال له : « يا خالد ، ضع هذا

السيف عنك ، اللهم ، إنى قد وضعت لك خالد بن الريان ، اللهم لا ترمقه أبدا ، اللهم ، إنى لأذكر بأسه وهيبته » . ثم نظر ابن عبد العزيز فى وجوه الحرس ، ودعا عمرو بن مهاجر الأنصارى ، وقال له « إنك لتعلم يا عمرو أن ما بينى وبينك قرابة الإسلام ، ولكنى قد سمعتك تكثر تلاوة القرآن ، ورأيتك تصلى فى موضع تظن أن لا يراك فيه أحد ، فرأيتك تحسن الصلاة ، خذ هذا السيف ، فقد وليتك حرسى » . وخمد ذكر « ابن الريان » فلا يذكر ، حتى إن الناس ليقولون ، ما فعل خالد ، أحى هو أم قد مات . . !

وبات عيال سليمان بن عبد الملك الخليفة الراحل يفرغون الأدهان والطيب من هذه القارورة إلى هذه القارورة ، ويلبسون من ثياب أبيهم مالم يلبس ، حتى تتكسر الثياب ، وكان الخليفة إذا مات ، فما لبس من الثياب ، أو مس من الطيب ، كان لولده ، وما لم يلبس من الثياب ، وما لم يمس من الطيب . فهو للخليفة بعده ، ولما أصبح عمر ، قال له أهل سليمان « هذا لك ، وهذا لنا » ، فقال عمر « وما هذا ، وما هذا ؟ » . قالوا : « هذا مما لبس الخليفة من الثياب ومس من الطيب ، فهو لولده وهذا مما لم يمس ، ولم يلبس ، فهو للخليفة بعده ، وهو لك »

فقال عمر « ما هذا لى ولا لسليمان ، ولا لكم ، ولكن يا مزاحم(١) ، ضم هذا كله إلى بيت مال المسلمين » ففعل . وتشاور الأمراء والوزراء ، وقالوا : « أما المراكب والسرادقات والحجر والشوار(٢) ، فليس فيه رجاء بعد أنه كان منه فيه ما قد علمتم ؛ وقد بقيت خصلة ، وهى الجوارى ، فنعرضهن عليه ، فعسى أن يكون ما تريدون فيهن ، وإلا فلا مطمع لكم عنده » وأتى بالجوارى ، فعرضن على عمر ، كأمثال الدمى ، فلما نظر إليهن عمر ، جعل يسألهن واحدة واحدة ، من أنت ؟ ولمن كنت ؟ ومن بعث بك ، فتخبره الجارية بأصلها ، ولمن كانت ، وكيف أخذت ، فيأمر بردهن إلى أهلهن ، ويحملن إلى بلادهن ، حتى فرغ منهن ، ولما رأى القوم منه ذلك أيسوا منه وعلموا أنه سيحمل الناس على الحق .

* * *

ودعا عمر بن عبد العزيز بدواة وقرطاس ، وكتب ثلاثة كتب ، لم يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل أن يؤخرها ، فأمضاها من فوره ، والناس فى تساؤل وهمز يقولون ، ما هذه العجلة ؟ أما كان يصبر حتى يرجع إلى بيته . . إن هذا هو حتف السلطان ، هذا الذى يكره ما دخل فيه ، ولم يكن بعمر

---

(١) مولى عمر بن عبد العزيز وساعده . (٢) متاع البيت .

عجلة ، ولا محبة ، ولكنه حاسب نفسه ، ورأى أن تأخير ذلك لا يسعه .

كتب عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة بن عبد الملك بالقفول من القسطنطينية ، وقد كان سليمان أغزاه إياها برا وبحرا ، وأشفى على فتحها ، ثم خدع عنها ، وبلغ ذلك سليمان ، فغضب مما فعل به ، وحلف ألا يقفله منها ، ما دام حيا ، واشتد على الجند المقام ، وجاعوا حتى أكلوا الدواب من الجهد والجوع ، وينتحى الرجل عن دابته ، فتقطع بالسيوف ، وبلغ رأس الدابة كذا وكذا من الدراهم ، ولج سليمان بن عبد الملك فى أمرهم ، فكان هذا يغم عمر بن عبد العزيز ، ولما ولى رأى أنه لا يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل أن يلى شيئا من أمور المسلمين ، ثم يؤخر قفولهم ساعة .

وكتب عمر بن عبد العزيز كتابا بعزل أسامة بن زيد التنوخى ، وكان على خراج مصر ، وأمر به أن يحبس فى كل جندها سنة ، ويقيد ، ويحل عنه القيد عند كل صلاة ، ثم يرد فى القيد ، وكان أسامة غاشما ظلوما ، معتديا فى العقوبات بغير ما أنزل الله عز وجل يقطع الأيدى فى غير ما أمر به ، فحبس أسامة بمصر ، ثم نقـــل إلى أرض فلسطين فحبس فى جندها سنة .

وكتب عمر بعزل « يزيد بن أبي مسلم » عن إفريقية ، وكان « يظهر التألة ، والنفاذ لكل ما أمر به السلطان ، عما جل أو صغر من السيرة ، بالجور والمخالفة للحق ، وكان في هذا يكثر الذكر والتسبيح ، ويأمر بالقوم ، فيكونون بين يديه ، يعذبون ، وهو يقول : سبحان الله والحمد لله ، شد يا غلام موضع كذا وكذا . لبعض مواقع العذاب ، وهو يقول : « لا إله إلا الله ، والله أكبر ، شد يا غلام موضع كذا وكذا .. فكتب عمر بعزله .

# المظالم

وسار عمر بن عبد العزيز إلى داره . فقام الناس بين يديه . فقال لهم : « يامعشر الناس . إن تقوموا نقم ، وإن تقعدوا نقعد ، فإنما يقوم الناس لرب العالمين ، إن الله فرض فرائض ، وسن سنناً ، من أخذ بها لحق ، ومن تركها محق ، ومن أراد أن يصحبنا ، فليصحبنا بخمس : يوصل إلينا حاجة من لا تصل إلينا حاجته ، ويدلنا من الجهل إلى ما لا نهتدى إليه ، ويكون عوناً لنا على الحق ، ويؤدى الأمانة إلينا وإلى الناس ، ولا يغتب عندنا أحداً ، ومن لم يفعل فهو فى حرج من صحبتنا والدخول علينا » وكان عمر بن العزيز يتقدم إلى الحرس إذا خرج عليهم ألا يقوموا إليه ، ويقول لهم لا تبتدئونى بالسلام ، إنما السلام علينا لكم »

واحتجب بن عبد العزيز عن الناس ثلاثاً لا يدخل عليه أحد ووجوه بنى مروان وبنى أمية ؛ وأشراف الجنود والعرب ببابه ينظرون ما يخرج عليهم منه ، فجلس للناس بعد ثلاث ، وحملهم على شريعة من الحق ، فعرفوها ، ورد المظالم ، وبدأ فى ذلك بنفسه وقال : إنه لينبغى ألا أبدأ بأول من نفسى ، وانظر إلى ما فى يديه من أرض أو متاع ، فخرج منه ، حتى نظر إلى فص خاتم كان فى يده وقال : هذا أعطانيه الوليد من غير حقه ، مما جاء من أرض المغرب ، فرده .

وخرج مما كان فى يده من القطائع ، وكان له منها قطائع باليمامة ، والمكيدس وجبل الورس باليمن وفدك ، فخرج من هذا كله ، ورده الى المسلمين ، واستبقى لنفسه عيناً كانت له بالسويداء ، استنبطها بعطائه وطيب ماله ، فكانت تأتيه غلتها كل سنة ، مائة وخمسون ديناراً ، وأعاد لأولاد « فاطمة » رضى الله عنها أرض « فدك » وكانت تغل كل سنة عشرة آلاف درهم ، وكتب الى عامله بالمدينة أبى بكر بن حزم كتابا يقول فيه : إنى نظرت فى أمر فدك ، فاذا هو لا يصلح ، فرأيت أن أردها الى ما كانت عليه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان ، فاقبضها ، وولها رجلا يقوم عليها بالحق ، وسلام عليك » .

وثنى عمر بزوجته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وكان عندها جواهر ، أمر لها بها أبوها ، لم ير مثلها ، فقال لها : يا فاطمة ، اختارى ، إما أن تردى حليك إلى بيت المال ، وإما أن تأذنى لى فى فراقك فإنى أكره أن أكون أنا وأنت فى بيت واحد » . قالت : لا ، بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لى » . فأمر به عمر . فحمل حتى وضع فى بيت مال المسلمين . ولما مات عمر ، واستخلف من بعده يزيد بن عبد الملك ، قال لأخته فاطمة . إن شئت رددته عليك » . قالت . فإنى لا أشاؤه ، طبت عنه نفسا فى حياة عمر ، وأرجع فيه بعد موته ! . لا والله أبدا .

وأمر عمر فنودى فى الناس . الصلاة جامعة . وصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال . « أما بعد ، فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا ، ما كان ينبغى لنا أن نأخذها ، وما كان ينبغى لهم أن يعطوناها ، وإن ذلك قد صار إلى ، ليس على فيه دون الله محاسب ، ألا وإنى قد رددتها وبدأت بنفسى . وأهل بيتى ، اقرأ يا مزاحم — وقد جىء قبل ذلك بسفط فيه تلك الكتب — فجعل مزاحم يقرأ كتابا كتابا ، فيأخذه عمر . وبيده مقص . فيقصه به . حتى لم يبق فيه شىء . إلا شقه .

ولم يكتف عمر برد ما كان فى يده من المظالم ، بل إنه كان لا يأخذ من بيت المال شيئا . ولا يجرى على نفسه من الفىء درهما . وكان عمر بن الخطاب يجرى على نفسه من ذلك درهمين فى كل يوم فقيل لعمر بن عبد العزيز : « لو أخذت ما كان يأخذ عمر بن الخطاب » فقال ابن عبد العزيز « إن عمر بن الخطاب لم يكن له مال . وأنا مالى يغنينى »

وكذلك حمل عمر بن عبد العزيز بنى مروان على النزول عما كان فى أيديهم من الأموال بغير استحقاق ، وردها إلى ذويها ، وقد جاءه رجل ذمى من أهل حمص ، فقال: « يا أمير المؤمنين ، أسألك كتاب الله » قال : وما ذاك ؟ . قال . العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصب أرضى — والعباس جالس — فقال : يا عباس

ماتقول ؟ . قال : أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وكتب لى بها سجلا ، فقال : ماتقول يا ذمى ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أسألك كتاب الله عز وجل ، فقال عمر : نعم ، كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ، يا عباس أردد عليه ضيعته » فردها عليه .

وكان للوليد بن عبد الملك ابن يدعى « روح » وكان روح هذا قد نشأ فى البادية كأنه أعرابى ، فأتى ناس من المسلمين إلى عمر يخاصمونه روحا فى حوانيت بحمص كانت لهم ، وأقطعه إياها أبوه الوليد ، فقال له عمر : أردد عليهم حوانيتهم ؛ فقال روح له : إنها لى بسجل من الوليد ، فقال عمر : مايغنى عنك سجل الوليد ، الحوانيت حوانيتهم ، وقد قامت لهم البينة عليها ، خل لهم حوانيتهم . فقام روح والخصيون منصرفين ، وتوعد روح خصيا منهم ، فرجع الخصى إلى عمر ، فقال له : هو والله يتوعدنى يا أمير المؤمنين ، فقال عمر للحارس : « أخرج إلى روح ، فإن سلم إليهم حوانيتهم فذاك ، وإلا فأتنى برأسه ، فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح ، وذكر له الذى أمر به عمر ، فانخلع فؤاده ، وخرج إليه الحارس ، وقد سل من السيف شبرا ، وقال له : قم ، خل لهم حوانيتهم ، فقال روح « نعم » نعم ، وخلى الحوانيت .

وتتابع الناس فى رفع المظالم إليه ، فما رفعت إليه مظلمة إلا ردها ، سواء كانت فى يده أو فى يد غيره ، حتى أخذ أموال بنى مروان وغيرهم ، مما صار إليهم ظلما ، وكان يكتفى فى رد المظالم باليسير ، فاذا عرف وجه مظلمة الرجل ردها عليه ، لما يعرف من ظلم الولاة قبله للناس ، وقد روى أنه أنفد بيت مال العراق فى رد المظالم على أهله ، ولما نفد حمل إليه من الشام .

وكان سليمان بن عبد الملك قد أمر لعنبسة بن سعيد بن العاص بعشرين ألف دينار ، ودارت فى الدواوين حتى انتهت إلى ديوان الختم ، ولم يبق إلا قبضها ، وتوفى سليمان قبل أن يقبضها عنبسة ، وكان عنبسة صديقا لعمر بن عبد العزيز ، فغدا عليه يريد كلام عمر فيما أمر له به سليمان ، فوجد بنى أمية حضورا ببابه عمر ، يريدون الإذن عليه ، ليكلموه فى أمورهم ، فلما رأوا عنبسة ، قالوا : ننظر مايصنع به قبل أن نكلمه .

ودخل عنبسة على عمر ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إن أمير المؤمنين سليمان كان قد أمر لى بعشرين ألف دينار ، حتى انتهت إلى ديوان الختم ، ولم يبق إلا قبضها ، فتوفى سليمان على ذلك ، وأمير المؤمنين أولى باستتمام الصنيعة عندى ، وما بينى وبينه أعظم مما كان بينى وبين أمير المؤمنين سليمان » . فقال

له عمر : كم ذلك ؟ . قال : عشرون ألف دينار . . فقال عمر « عشرون ألف دينار تفنى أربعة آلاف بيت من المسلمين ، وأدفعها لرجل واحد .. ! والله مالى إلى ذلك من سبيل » . فرمى عنبسة بالكتاب الذى فيه الصك ، فقال له عمر : لاعليك أن يكون معك ، فلعله أن يأتيك من هو أجرأ على هذا المال منى ، فيأمر لك به . . فأخذ عنبسة الكتاب ، وخرج إلى بنى أمية ، فأعلمهم ما كان ، فقالوا : « ليس بعد هذا شىء ، ارجع إليه ، فاسأله أن يأذن لنا أن نلحق بالبلدان » فرجع إليه عنبسة وقال : يا أمير المؤمنين « إن قومك بالباب يسألونك أن تجرى عليهم ما كانت من قبلك يجرى عليهم » فقال عمر . والله ماهذا المال لى ، ومالى إلى ذلك من سبيل » . . فقال عنبسة : « يا أمير المؤمنين . فيسألونك أن تأذن لهم يضربون فى البلدان » قال عمر . ماشاءوا ، ذلك لهم ، وقد أذنت لهم » فقال عنبسة وأنا أيضا » قال « وأنت أيضا ، قد أذنت لك ، ولكنى أرى لك أن تقيم ، فإنك رجل كثير النقد ، وأنا أبيع تركة سليمان فلعلك أن تشترى منها مايكون لك فى ربحه عوض مما فاتك » .

رجع ابن عبد العزيز بنى مروان ، فقال لهم : . يابنى مروان ، إنكم قد أعطيتم حظا وشرفا وأموالا ، وإنى لأحسب شطر أموال هذه الأمة

أو تثبتها فى أيديكم . فأدوا ما فى أيديكم من حقوق الناس ، ولا تلجئونى إلى ما أكره ، فأحملكم على ما تكرهون » . فلم يجبه واحد منهم . فقال « أجيبونى ، فقال رجل منهم ، والله لا نخرج من أموالنا التى صارت إلينا من آبائنا ، فنفقر أبناءنا ونكفر آباءنا ، حتى تزايل رءوسنا أجسادنا ، فقال عمر . والله لولا أن تستعينوا على بمن طلب هذا الحق له لأضرعت خدودكم عاجلا ، ولكنى أخاف الفتنة ، ولئن أبقانى الله لأردن إلى كل ذى حق حقه إن شاء الله » .

ولما منع عمر قرابته ما كان يجرى عليهم من أرزاق الخاصة ، وأخذ منهم القطائع التى كانت فى أيديهم . شكوه إلى عمته ، فدخلت عليه وقالت : « إن قرابتك يشكونك . ويزعمون أنك أخذت منهم خيرا غيرك » قال عمر « ما منعتهم حقا أو شيئا كان لهم » فقالت العمة . إنى رأيتهم يتكلمون . وإنى أخاف أن يهيجوا عليك يوما عصيبا » فقال عمر . كل يوم أخافه دون يوم القيامة . فلا وقانى الله شره ، فرجعت إلى بنى أمية ، وقالت لهم : « ذوقوا مغبة أمركم فى تزويجكم آل عمر ابن الخطاب » .

وجنح بنو أمية من فعل عمر بن عبد العزيز بهم . فاجتمعوا إلى عمر ابن الوليد بن عبد الملك . وكان كبيرهم وشيخهم . وسألوه أن يكتب إلى عمر يوبخه . لعله أن يرده عن مساءتهم فكتب إليه

« إنك أزريت على من كان قبلك من الخلفاء . وعبت عليهم . وسرت بغير سيرتهم . وسميتها المظالم . بخضا لهم وشنآنا لمن بعدهم من أولادهم . وقطعت ما أمر الله به أن يوصل . إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريثهم . فأدخلتها بيت المال جسورا وعدوانا . يا ابن عبد العزيز . اتق الله وراقبه إن شططت . لم تطمئن على منبرك حتى خصصت أول قرابتك بالظلم والجور . فوالذى خص محمدا صلى الله عليه وسلم بما خصه به . لقد ازددت من الله بعدا فى ولايتك هذه . إذ زعمت أنها عليك بلاء . فاقصر بعض ميلك . واعلم أنك بعين جبار . وفى قبضته . وإن تترك على هذا » .

فلما قرأ عمر كتابه . كتب إليه .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمر ابن الوليد . السلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين . أما بعد . فإنه بلغنى كتابك وسأجيبك بنحو منه . أما أول شأنك يا ابن الوليد . فإن أول أمرك يا فلان .. أن أمك بنانة « أمة السكون » كانت تدخل دور حمص . وتطوف حوانيتها . والله أعلم بها . ثم اشتراها دينار بن دينار من فىء المسلمين . فأهداها إلى أبيك . فحملت بك ، فبئس المحمول . وبئس الجنين ، ثم نشأت ، فكنت جبارا شقيا ، كتبت إلى تظلمنى وزعمت أن حرمتك وأهل بيتك فى مال المسلمين الذى فيه حق

القرابة والضعيف والمسكين وابن السبيل ، وإنما أنت كأحدهم
لك مالهم ، وعليك ماعليهم . وإن أظلم منى وأترك لعهد الله
الذى استعملك صبيا سفيها ، تحكم فى دماء المسلمين وأموالهم
برأيك ، لم تحضره نية ، ولم يكن يحمله عليه إلا حب الولد ،
ولم يكن ذلك له ، ولا حق له فيه ، فويلك وويل أبيك ،
ما أكثر طلابكما وخصماءكما يوم القيامة ، وكيف النجاة لمن
كثر خصماؤه . وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من جعل لعالية
البربرية سهما فى فىء المسلمين وصدقاتهم . أهاجرت ؟ ثكلتك
أمك ، أم بايعت بيعة الرضوان ، فتستوجب سهام المقاتلين ؟ .
وإن أظلم منى وأترك لعهد الله ، من استعمل « قرة بن شريك »
أعرابيا جلفا على مصر ، وأذن له فى المعازف واللهو والخمر ؛
وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من ولى يزيد بن أبى مسلم على
جميع المغرب ، يجبى المال الحرام ويسفك الدم الحرام . وويلك
لو قد التقت عليك حلقتا البطان وطالت بى حياة ، ورد الله الحق
إلى أهله ، تفرغت لك ولأهل بيتك ، فأقتكم على المحجة البيضاء ،
فطالما أخذتم كبنيات الطريق ؛ وتركتم الحق وراءكم ، وعما وراء
هذا ما أرجو أن يكون خير رأى أبيه ، بيع رقبتك ، فإن لكل
مسلم فيك سهما فى كتاب الله ، والسلام على من اتبع الهدى ،
ولا ينال سلام الله الظالمين » .

* * *

وكان عمر بن عبد العزيز أشد مايكون على بنى أمية ، اجتمع مرة بنو مروان ، فقالوا « لو دخلنا على أمير المؤمنين فعطفناه علينا ، واذكرناه أرحامنا » . فدخلوا عليه ، وتكلم رجل منهم فمزح ، فنظر إليه عمر ، فوصل له رجل كلامه بالمزاح ، فغضب عمر وقال لهم : لهذا اجتمعتم ، لأخس الحديث ، ولما يورث الضغائن ، إذا اجتمعتم فأفيضوا فى كتاب الله ؛ فإن تعديتم فعليكم بمعالى الحديث .

ودخل ابن لسليمان بن عبد الملك على ابن عبد العزيز ، وقال يا أمير المؤمنين أما ترد قطيعتى ، « فقال عمر » معاذ الله أن أرد قطيعة رسخت فى الإسلام . قال . فهذا كتابى ، وأخرج كتابا من كمه ، فقرأه عمر ثم قال ، « لمن كانت هذه الأرض ؟ قال « للفاسق ابن الحجاج . قال عمر » فهو أولى بماله . قال يا أمير المؤمنين ، فإنها من بيت مال المسلمين . قال . فالمسلمون أولى بها . قال . يا أمير المؤمنين ، رد على كتابى . قال « لو لم تأتنى به لم أسألكه ، فأما إذا جئتنى به ، فلا ندعك تطالب بباطل . فبكى ابن سليمان . فقال مزاحم . يا أمير المؤمنين « ابن سليمان » تصنع به هذا ؟ . قال . ويحك يا مزاحم إنها نفسى أحاول عنها ، وإنى لأجد له ماأجد لولدى » .

وحدث هشام بن عبد الملك أنه قال لعمر بن عبد العزيز : « يا أمير المؤمنين ، إنى رسول قومك اليك ، وإن فى أنفسهم ما أكلمك به ؛ إنهم يقولون ، استأنف العمل برأيك فيما تحت يدك ، وخل بين من سبقك وبين ما ولوا بما عليهم ولهم ، فقال له عمر : أرأيت إن أتيت بسجلين ، أحدهما من معاوية ، والآخر من عبد الملك بأمر واحد ، فبأى السجلين آخذ ؟ ... قال هشام « بالأقدم » فقال عمر : فإنى وجدت كتاب الله الأقدم ، فأنا حامل عليه من أتانى من تحت يدى وفيما سبقنى » .

وكلم سعيد بن خالد بن عمر بن عثمان الخليفة عمر فى أمر بنى أمية ، أن يرد عليهم بعض ما كان لهم وقال : يا أمير المؤمنين ، امض لرأيك فيما وليت بالحق والعدل . وخل عمن سبقك ، وعما ولى ، خيره وشره ، فإنك مكتف بذلك » . فقال له عمر « أنشدك الله الذى اليه نعود ، أرأيت لو أن رجلا هلك ، وترك بنين صغارا وكبارا ، فمن الأكابر الأصاغر بقوتهم ، فأكلوا أموالهم . وأدركك الأصاغر ، فأداوك بهم وبما صنعوا فى أموالهم ، ما كنت صانعا ؟ قال : كنت أرد عليهم حقوقهم حتى يستوفوها . قال عمر : فإنى وجدت كثيرا ممن قبلى من الولاة ، عزوا الناس بقوتهم وسلطانهم ، وعزهم بما أتباعهم ، فلما وليت ، أتونى بذلك ، فلم يسعنى إلا الرد

على الضعيف من القوى ، وعلى المستضعف من الشريف . فقال سعيد : وفقك الله يا أمير المؤمنين .

واجتمع ناس من بنى مروان عند عمر بن عبد العزيز ، فحبسهم عن الخروج ، وقال لخبازه : إذا دعوت بالطعام ، فلا تعجل به ، وطال حبسهم حتى تعالى النهار ، وهم لم يعتادوا الصبر على الأكل ، ثم به الخباز ، فقال له عمر : « ويحك ، ائتنا بطعام ، قال نعم يا أمير المؤمنين الآن » . ولما أبطأ الخباز ، قال لهم عمر « فهل لكم فى سويق وتمر ؟ وجئ بسويق وتمر ، فأكلوا ، ولما فرغوا جاء الخباز بالطعام ، فأمسكوا عنه ، فقال عمر : « ألا تأكلون ؟ » قالوا « والله يا أمير المؤمنين ، ما نقدر عليه » . فقال لهم ذلك غير مرة فأبوا أن يأكلوا ، فقال : « ويحكم يابنى مروان ، ففيم التقحم فى النار » وبكى عمر .. !

. . .

وقال ابن عبد العزيز عمر لمولاه مزاحم ، إن هؤلاء القوم قد أعطونا عطايا ، والله ما كان لهم أن يعطوناها ، وما كان لنا أن نقبلها ، وإن ذلك قد صار إلىّ ليس على فيه دون الله محاسب ، فقال له مزاحم « يا أمير المؤمنين ، هل تدرى ،

كم ولدك .. هم كذا وكذا ، فذرفت عينا عمر ، وجعل يستمع ؛ ويقول : « أكلهم الى الله » فانطلق مزاحم من وجهه ذلك حتى استأذن على عبد الملك ابن عمر ، فأذن له - وقد اضطجع للقائلة - فقال له عبد الملك « ما جاء بك يا مزاحم هذه الساعة ، هل حدث حدث ؟ قال : نعم ، أشد الحدث عليك وعلى ابن أبيك . قال وما ذاك ؟ . قال دعانى أمير المؤمنين وذكر له ما قال عمر ، فقال عبد الملك « فما قلت له ؟ . قال مزاحم ، قلت : « يا أمير المؤمنين ، أتدرى كم ولدك ، هم كذا وكذا » قال عبد الملك « فما قال لك ؟ » قال « جعل يستمع ، ويقول « أكلهم الى الله . فقال عبد الملك « بئس وزير الدين أنت يا مزاحم ! .

ثم وثب ، فانطلق إلى باب أبيه عمر ، فاستأذن عليه ، فقال له الآذن : إن أمير المؤمنين قد وضع رأسه للقائلة . قال استأذن لى . فقال له الآذن : أما ترحمونه . ليس له من الليل والنهار إلا هذه الوقعة . قال عبد الملك .. استأذن لى لا أم لك » فسمع عمر الكلام ، فقال من هذا ؟ » قال . هذا عبد الملك . قال ائذن له فدخل عليه ، وقد اضطجع عمر للقائلة . فقال : ما حاجتك يا بنى هذه الساعة ؟ . قال . حديث

حدثنيه مزاحم ، قال : فأين وقع رأيك من ذلك ، قال : وقع رأيي على إنفاذه ، فرفع عمر يديه ، وقال . « الحمد لله الذى جعل لى من ذريتى من يعيننى على أمر دينى ، نعم ، يابنى ، أصلى الظهر ، ثم أصعد المنبر ، فأردها علانية على رءوس الناس » . فقال عبد الملك . يا أمير المؤمنين ، ومن لك بالظهر ، ومن لك إن بقيت إلى الظهر أن تسلم لك نيتك إلى الظهر ..» فأتى عمر المسجد وصعد المنبر ، ورد أمواله إلى بيت مال المسلمين على رءوس الناس ..